Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

السرد الذاتي في كتابات الدكتور مصطفى الزباخ

Autobiographical Narrative in the Writings of Dr. Mustafa al-Zabakh

(01) Abdulkarim al-Rahiouy
Arabic Language Teacher
Regional Academy of Education and Training,
Fes-Mekne
Kingdom of Morocco
rahiouy11@hotmail.com

Abstract:

In this study, we will stand at the autobiographical narrative of one of the figures of literature and thought in Morocco, namely Mustafa Al-Zabakh, this man whose career path led him to the Comoros Islands in the middle of the bays of the Indian Ocean... and there he will stand stunned before the magic of nature and the customs and conditions of the people, so he found nothing but storytelling as a means to document events and convey facts and observations, in a pleasant and funny literary style.
This study will seek to investigate the question of feasibility and value and artistic stakes in the narratives of this creative writer.

Keywords: Autobiographical narrative, values, Comoros Islands, Morocco

ملخص:

سنقف في هذه الدراسة عند السرد السيرذاتي لدى أحد أعلام الأدب والفكر في المغرب، وهو مصطفى الزباخ، هذا الرجل الذي قادته مسيرته الوظيفية إلى دولة جزر القمر وسط خلجان المحيط الهندي.. وهنالك سيقف مشدوها أمام سحر الطبيعة وعادات الناس وأحوالهم، فلم يجد إلا الحكيَ وسيلةً لتوثيق الأحداث ونقل الوقائع والمشاهَدات، بأسلوب أدبي ماتع وطريف.

وهذه الدراسةُ ستسعى إلى بحث سؤال الجدوى والرهانات القيميّة والفنية في سرديات هذا الكاتب المبدع.

كلمات مفتاحية: السرد، السيرة الذاتية، القيم، جزر القمر، المغرب.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

تقديم:

السرد الأدبي من أهم أنواع الفنون الأدبية وأكثرها ذيوعا، ويعتمد على سحر اللغة لنقل الوقائع والأحداث نقلا شائقًا مثيرا جميلا فنيا، يخضع فيه ترتيب الأحداث لمنطق تعلّق السابق باللاحق في تعاقب متسلسل للأحداث، وتوال دينامي للفعل السردي الشائق.

يرتكز مفهوم السرد على دعامتين أساسيتين:

الأولى تستوجب وجود قصة ما تتضمن أحداثا معينة؛

والثانية تستدعي اختيار طريقة تحكى بها تلك القصة، وتسمى تلك الطريقة سردا. حيث إن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق كثيرة، ولتمييز أنماط الحكي المتباينة بين هذا الراوي وذاك، يأتي السرد ليتولّى هذه المهمة، فيحتكم إليه المتلقي للتفريق بين المستويات السردية، وبين تقنيات السرد وعوالم الحكاية لدى جمهور الساردين.

ومن هنا فإن السارد يستضمر وظائف كثيرة داخل النص الحكائي، فيضمّنها كلّ البُنى الفاعلة والرؤى الذاتية التي تؤثث فضاءه السردي وعالمه الحكائي، ومن تلك الوظائف:

- الوظيفة السردية: التي يقوم بموجبها بسرد الأحداث وتقديم الشخوص ووصف الأشياء والأمكنة...
- الوظيفة التفسيرية: وتُعنى بما يحدث من وقائع يعمل السارد على توضيحها وشرح أسبابها ومراميها.
- الوظيفة التواصلية: التي تتجلى في تلك العلاقة التي يقيمها السارد مع القارئ بهدف خلق نوع من التواصل معه، ونسج علائق بينه وبين مُتَلَقّي مُنجزه.
- ثم الوظيفة التقييمية: والتي تتحقق بالتعليق على بعض الأحداث انطلاقا من وجهة نظر السارد ومن مبادئه الفكرية والأخلاقية، أو من ناحية وصفه لإحدى شخصيات سرديته بطريقة ساخرة تعبر عن نوع من التهكم والاحتقار مثلا، أو بطريقة تعظيمية تجعل من ذلك الشخص بطلا من وجهة نظره خاصة.

وأما طرائق السرد فمتنوعة وتتباين من ساردٍ إلى آخر، ويمكننا التمييز بين ثلاث رؤى سردية أساس هي:

- الرؤية من خلف: وتتميز بكون السارد يعرف كل شيء عن شخصيات عالمه السردي، بما في ذلك أعماقها النفسية وأحاسيسها وأفكارها... كما تتميز بيسر الانتقال في الزمان والمكان دون حواجز. وعند السرد بهذه الرؤية يهيمن ضمير الغائب على عملية السرد.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

- الرؤية "مع": ويكون فيها السارد مساويا للشخوص في معرفة الأشياء، فلا يقدم لنا تفسيرا للأحداث قبل أن تصل الشخصية ذاتها إليه، وهنا يكون ضمير المتكلم أو المخاطَب هو المسيطر في هذه الرؤية، حيث يحصل بين السارد وشخوص حكايته تطابق تام وتوازٍ منتظم في سيرورة الأحداث والوقائع.
- الرؤية من خارج: وهنا تكون معرفة السارد أقلَّ إدراكا من أي شخصية في الحكاية؛ إذا لا يمكنه أن يصف ما يسمع ويرى دون أن يتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد. فهو سارد محايد تخبو جذوته لتومض شرارة الشخوص وتتوهّج ذات الأبطال.

حضور مصطفى الزباخ في دارة السرد المغربي

من أجناس السرد المعروفة الرواية والقصة والمسرحية والسيرة الذاتية والسيرة الغيرية والترجمة وغيرها، وكل هذه الأجناس أبدع فيها الأدباء المغاربة المعاصرون، وسطع نجمهم في سماء الأدب في المشرق والمغرب، ومنهم محمد زفزاف، ومبارك ربيع، ومحمد إبراهيم بوعلو، ومحمد برادة، وأحمد المديني، وبنسالم حميش، وعبد اللطيف اللعبي، وعبد الكريم غلاب، ومحمد افضيلي، وليلى أبو زيد، ومحمد كمال فارسي، وحسن برما، وأحمد بوزفور، ومحمد معتصم، ومحمد عز الدين التازي، ومصطفى الزباخ، واللائحة تطول وحصرها صعب دون شك..

وفي هذه الدراسة سنقف أمام الدكتور مصطفى الزباخ، وسنستدعي سردياته الذاتية التي يحكي فيها عن ثمان سنوات قضاها في جزر القمر مكلفا بمهمة رسمية هنالك، ونعتبر ما كتبه عن تلك اللحظات وفي ذلك الزمان سيرة ذاتية في قالب سردي ماتع، ومن تلك الزاوية سننظر إلى ذلك المنجز باعتباره منجزا سرديا شخوصه تتنوع بين الكاتب بالأساس، ومَنْ التقاهم وجمعته بهم وقائع وأحداث، والمكان هو دولة جزر القمر، والزمان يمتد من أواخر ثمانينات القرن الماضي إلى أواخر تسعينات القرن ذاته. والأحداث هي مجمل الوقائع الرسمية والطريفة والمخيفة أحيانا، التي يرويها الكاتب في هذا المنجز. وبالأساس في كتابيه: "فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية"[1] و"كنوز عربية وإسلامية بجزر القمر الإفريقية"[2].

إذاً؛ فنحن حين نقف أمام الدكتور مصطفى الزباخ فحقيقٌ بنا الاعتراف بأننا في مدارِ قامة مغربية شامخة في سماء السرد المغربي وبخاصة في أدب السيرة الذاتية، السيرة المسجّاة بغطاء التأريخ والتوثيق. علماً أن "الطَّرز السيرذاتي كان هو نقطة الانطلاق الحقيقية للرواية في أدبنا، وستبقى له الهيمنة حتى وهو يشوش على القارئ خط السير بإخفائه

[1]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. تأليف الدكتور مصطفى الزباخ. مطبعة: Copy Laila - 2023.

[2]- كنوز عربية وإسلامية بجزر القمر الإفريقية "إنجازات وشهادات". تأليف الدكتور مصطفى الزباخ. مطبعة: Copy Laila- 2023 .

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

هدفه، او بلعبة تحويل مركز الاهتمام من الداخل، ضمير المتكلم، نحو الخارج، أي الأحداث والحكي المنسوج حول نفس الضمير"[1].

السرد السّيرذاتي والغرض الفكري في منجز مصطفى الزباخ

إن أدب السيرة الذاتية في المغرب من الأشكال الحكائية التي فرضت ذاتها بين مختلف فنون الأدب في عصرنا الحديث، ولذلك "يكاد يجمع المتتبعون لأشكال السرد الأدبي في المغرب الحديث على أن السيرة الذاتية قد أخذت مجالا واسعا ومطّردا ضمن الكتابة السردية الأدبية المغربية. فإذا كانت سيرة التهامي الوزاني (الزاوية)، وعبد المجيد بن جلون (في الطفولة) تمثلان علامتين مضيئتين في الكتابة السِّيرية لدى الجيل السابق؛ فإن الأجيال المعاصرة قد عرفت اهتماما أوسع بهذا الشكل الأدبي، ولم يتوقف هذا الاهتمام عند الحد الكمي فحسب؛ بل امتد ليشمل الجوانب النوعية أيضا، حيث استفادت التجارب السيرية المعاصرة من تقنيات السرد في معالجة موضوع الذات، كما أنها تحولت من استغلال الذات للحديث عن وقائع خارجة عنها إلى استغلال هذه الوقائع لإضاءة جوانب من الذات أو تبرير سلوكاتها"[2].

ونحسب أن كتابات الدكتور مصطفى الزباخ لا تخرج عن هذا المسار، ولا تشكّل استثناء عن هذا التوجّه؛ ونقرّ أن حضور ذات السارد في منجزه هذا، استغلّ الوقائع لإنارة ما ادلهمّ من خبايا الذات وما انطمر في سراديب سلوكاتها المضْمَرة.

ومعلومٌ أن أغراض الحكاية السردية تتعدد وتتنوع ما بين الغرض التاريخي، والغرض النفسي، والغرض الاجتماعي، والغرض الفكري، وغيرها من الأغراض... وإن الذي يتتبع سُرُود الدكتور مصطفى الزباخ الذاتية يكشف للوهلة الأولى اهتمامه بالغرض الفكري أساساً. وإن الغرض الفكري في السرد هو "غرض يَقْصِد الأديب من ورائه نشر مبدإٍ أو مناهضة مبدإٍ، والغاية البعيدة من هذا الغرض هي التعليم عن طريق السرد الإخباري الممتع، وبغلاف من فنية التعبير، وهو يَرُوج، لما فيه سِتْرٍ وتمويه، حين يطغى الاستبداد ويعقل الظالمون ألسنة الفكر. وقد يرُوج حين يحتدم الصراع الفكري بين القيادات المتنازعة على الزعامة الشعبية"[3].

---

[1]- الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث "التكوين والرؤية". أحمد المديني. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. الطبعة الأولى: 2000م. ص 250.

[2]- قراءات في الأدب المغربي الحديث. الدكتور عبد العزيز جاسوس. منشورات زاوية. الرباط. الطبعة الأولى: 2006م. ص 7.

[3]- الفن والأدب: بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية. الدكتور ميشيل عاصي. منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. الطبعة الثانية: 1970م. ص 158.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

ولذلك لا نعدم وجود هذا الغرض الفكري في كتابات الدكتور مصطفى الزباخ السردية، التي يحكي فيها عن جزر القمر وعن الأحداث التي وقعت هناك بطابع سردي ماتع وشائق ومليء بالإثارة، وكذا الأحداث الدرامية التي منحت كتاباته موقعها في مجال الكتابة السردية المغربية في عصرنا هذا.

قضايا وقيم في سرود مصطفى الزباخ

أولا/ قضية الاغتراب

لا يكاد قارئ المنجز الأدبي السردي للدكتور مصطفى الزباخ يتجاوز بعض الصفحات مما كتبه السارد، حتى يضع يده على الحضور القوي لقيمة الاغتراب والشوق والحنين. فالاغتراب والغربة والضياع أحيانا كلها مفاهيم يتحسسها القارئ وهو يتتبع أحداث سرديات الدكتور الزباخ، هذا الاغتراب الذي عاشه وهو يؤدي رسالته الإنسانية النبيلة في دولة جزر القمر العربية الإسلامية، مغتربا عن وطنه وعن أهله من أجل القيام بمهام إنسانية نبيلة وإنجازات وطنية سامية.

وقد تأثرت الكتابات السردية للدكتور مصطفى الزباخ بالاغتراب الحضاري والاغتراب المهجري، وفيهما معا أثر نزوح الكاتب من وطنه الأم إلى وطن آخر تفصله عنه عدد من البحار والخلجان والجبال والصحاري، مما جعل الكاتب يعيش الشوق والحنين إلى بلده وأهله. وفي هذا الصدد يقول الدكتور إبراهيم السولامي: "لم يكن الحنين إلى الوطن وحده رد فعل الاغتراب الحضاري المهجري، فقد قادتهم الحياة الصاخبة إلى أن يستنبطوا ذواتهم يتأملونها ويحاورونها في معنى الوجود وطباع البشر وفترات العمر ونهاية الإنسان"[1]. وهو ما عاشه الكاتب في مجتمع قُمُرِيٍّ يلامسه لأول مرة، ويُعايِشُه دونما مقدمات سابقة.

ولكن اغتراب الدكتور مصطفى الزباخ هو اغتراب من نوع آخر، اغتراب اختياري وغير قسري، اغتراب ذو هدف إنساني نبيل يسعى إلى بناء دولة ومساعدتها على تأمين سيادتها وإرساء مؤسساتها وتقوية أمنها وإثبات ذاتها في جامعة الدول العربية وأمم إفريقيا. ولذلك فهذا الاغتراب هو اغتراب مؤقت مرتبط بمدى إنجاز مهمة على الوجه الأكمل وإتمامها كما ينبغي. إذاً فهذا النوع من الاغتراب المهجري الحضاري يمكن أن نسميه اغتراباً لإرساء السلام، وهجرةً لتثبيت أركان الأوطان. يقول الدكتور إبراهيم السولامي: "ولئن كان كل الذين فارقوا أوطانهم قديما وحديثا

[1]- الاغتراب في الشعر العربي الحديث. الدكتور إبراهيم السولامي. منشورات زاوية. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. طبعة 2008م. ص 32.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

حنوا إلى وطنهم أرضا وبشرا؛ فإن الاغتراب المهجري خالف في عمقه اغتراب الآخرين، إنه اغتراب لا يخرج في الغالب الأعم عن الرحلة من أرض عربية إلى أخرى، أو في اغتراب مؤقت سينتهي ويعودون إلى ديارهم الأولى"[1].

وإن هذا الاغتراب الحضاري قد بلغ ذروته مع الدكتور الزباخ خلال دهشة اللقاء الأولى بتراب وشعب وواقع هذا البلد، تلك الدهشة الحضارية المنبثقة عن اغتراب مفاجئ مردُّهُ تغيُّرُ أحوال هذا البلد العربي المسلم بفعل أَثَرَ الأجنبي الغربي المستلِب، وما أحدثه من "انقلابات بنيوية" في ثوابت هذا البلد، وفي هويته وثقافته ودينه وعروبته.

يسرد لنا الدكتور الزباخ هذه الحقيقة بمرارة فيقول: "ولا أخفي الصدمة الحضارية التي عصفت بي عندما وطئت قدميَّ هذه الجزر، مبعثها ما يلي: أولاً؛ لم تنل الجزر على قدر غنى تراثها الثقافي والحضاري والطبي حظها من عناية المؤرخين والباحثين وخاصه العرب. ثانيا؛ لقد ظلمها الاستعمار الذي اقتلع جذور ثقافتها العربية، فنهب مخطوطاتِها العربيةَ، وجعل اللغة الفرنسية لغتَها الرسمية، ملغيا العربية في الإدارة والثقافة والمخاطبات، بل بلغ التشويه لتاريخها أقصى مداه حين حرّف اسمها العربي. ثالثا؛ هدد الاستعمار هويتها العربية التي بنتها القبائل والأمراء العرب الذين حكموها، واللغة العربية التي كتبوا تراثهم وتاريخهم بها. رابعا؛ إن التراث الحضاري بلغته العربية ظل ولأمد كبير مهددا بالضياع بسبب ندره المتخصصين في جمعه وتحقيقه ودراسته، ورحيل علماء في الثقافة العربية الاسلامية كالحبيب عمر بن سميط، والمفتي الأكبر سيد محمد بن عبد الرحمن، والشيخ محمد الشريف، والدكتور عمر عبد الله مويني بركة، وآخرين. خامسا؛ نلقى إشارات عجلى ومضطربة في تعريفها لا تغني البحث العلمي، أو تجلو معمياته، مثل ما ورد في كتاب (مروج الذهب) للمسعودي، وكتاب (حاضر العالم الاسلامي) لشكيب أرسلان، وكتاب (جولة في جزائر البحر الزنجي) لمحمد ناصر العبودي، وكتاب (نبذة عن تاريخ الإسلام في جزر القمر) لهاشم محمد العلوي، وكتاب (زنجبار) لصلاح العقاد. فعندما أسترجع ذكريات وجودي في جزر القمر لمدة أكثر من ثماني سنوات أجد أن ما رافق عطاءاتها التربويةِ والثقافيةِ والدبلوماسية من ذكريات، يشبه كتابا يحمل بين سطوره دلالات حضارية تقول الكثير عما سكت عنه التاريخ"[2].

[1]- الاغتراب في الشعر العربي الحديث. ص 24.

[2]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 19 وما بعدها.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

ثانيا/ المغامرة وقيم التضحية

إن الذي منح الكتابة الذاتية قيمتها التشويقية العالية التي تشد الأنفاس وتحبس النبض لدى الدكتور مصطفى الزباخ إنما هو حضور موضوع المغامرة والتضحية في عالمه السردي الخاص. وهو ما يسم الحكاية الذاتية بنوع من الإثارة يشدّ القارئ ويغريه بمكابدة التلقي وبمتابعة الاعتكاف في حضرة النص.

وقد وصل طابع المغامرة ذروته في بعض المقاطع من كتاب "فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية"، من قبيل قوله: "كلفني المرحوم رئيس الجمهورية سعيد محمد جوهر بمهمة شاقة وسامية كدت أن أدفع فيها حياتي ثمنا لتحقيقها وهي العمل على قبول جزر القمر عضوا في جامعة الدول العربية"[1]. وقوله: "إني تلقيت رسائل تهددني بالقتل بعد قبول الجزر في جامعة الدول العربية"[2]. وقوله: "قد يتساءل البعض كيف عشتَ مع زوجتك وأولادك في جزيرة فوقك جبل كرتالا الذي يسكنه بركان يهدد بالانفجار، وأمامك بنادق المرتزقة يقودها بوب دينار التي تجوب الشوارع قاطفة كل رأس يدعو إلى التحرر من رواسب الاستعمار والانعتاق من أذاهم؟! لهذا المتسائل أقول: لم تكن معنا أية سفارة عربية إسلامية تحمينا، أو قوة عسكرية ترفع رأسنا، غير العنايةِ الإلهية أولا، ثم تمثيلنا لمنظمة الإيسيسكو التي ينحصر خطابها في المجال التربوي والعلمي والثقافي، بمعزل عن البعد الدعوي أو السياسي، وهويتِنا المغربيةِ التي كان لها تقدير في المجتمع القمري و لدى الجميع"[3].

وأيضا من قبيل قوله: "لا أنسى أننا كنا مهددين بالمرتزق بوب دينار، أو كما كان يسميه القمريون (باب النار)! الذي كان يصول ويهدد بالقتل كل من دعا إلى التحرر من هيمنة فرنسا، فلقد قتل الرئيس الأول علي صالح، وقتل الرئيس الثاني أحمد عبد الله عبد الرحمن، ورجع لقتل الرئيس الثالث سعيد محمد جوهر، لكن لم يُكتب له النجاح فخرج بعد ذلك محاطا بحراسه ومتوجا بإكليل الزهور كالبطل المحرر وليس القاتل المغتصب"[4].

فهذه الأحداث تجعل الخطاب السردي ممزوجا بالمغامرة حقا، ومنسجما مع روح التضحية من أجل الرسالة الإنسانية النبيلة التي انتدبَ الكاتب نفسَه لإنجازها وتحقيق أهدافها، على الرغم من كل المخاطر التي تحدق به، والتهديدات

[1]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 7 – 8.
[2]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 9.
[3]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 23.
[4]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 10.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

بالتصفية والاغتيال التي يتلقّاها من الخونة وأعداء السلام والإسلام. وكل ذلك زادَ هذا المنجز السردي لذاذةً وإثارة، ومنحه دينامية وحياةً ورواء.

ثالثا/ القيم الدينية

تحضر القيمة الدينية بشكل قوي في سرديات الدكتور مصطفى الزباخ؛ فمكان أحداث سيرته الذاتية هو بلاد جزر القمر، وهو بلد إسلامي يدين الإسلامَ ويؤدي شعائره. لذلك تحضر القيمة الدينية بكثافة وتهيمن على عالمه السردي.

يقول في هذا الصدد: "لم تستطع مدة الاستعمار أن تقتلع القمريين من إسلامهم، ولم تستطع الحركات التبشيرية تمسيحهم"[1].

ويحكي الدكتور الزباخ عن إسلام القمريين، وهو إسلام سُنّي وسطي معتدل. وفي ذلك يقول: "إن إسلام القمريين هو إسلام سني يبتعد عن الغلو والشعوذة والتصوف الفلسفي، ومن تجلياته أخذهم بالتصوف السني عند أبي الحسن الشاذلي المغربي الأصل، وبالمذهب الشافعي، وشغفهم ببناء المساجد التي تعد مراكز للتعليم والتعبد، منها مسجد الجمعة، ومسجد فاس نسبة إلى مدينة فاس المغربية"[2].

ولعل من أبرز الشعائر الدينية التي يستمسك بها الشعب القمري شعيرةَ نحر أضحية عيد الأضحى، هاته الأضحية التي تمثل، لمن استطاع أن يتحصل عليها، إنجازا كبيرا. وفي هذا الصدد يحكي الدكتور الزباخ عن متاعب تأمين أضحية عيد الأضحى قائلا: "ومما يدعو إلى الاستغراب، فجزر القمر عبارة عن بستان دائم الاخضرار، وغابةٍ ملأى بكل الثمار الاستوائية النادرة، وبحارها من أغنى بحار العالم بالأسماك وخاصة سمكة (السيليكانت) التي يأتي الصيادون من اليابان لصيدها لوجودها في عمق البحار ولغرابتها، ومع هذا كنا نتعب في البحث عن أضحية لعيد الأضحى. ولا يوجد السمك في أسواقها الملبي لاحتياجاتها. ولعل ندرة الرغبة في تربية المواشي وصيد السمك ترجع إلى العادات الاجتماعية التقليدية التي ترفع مقام الناس عن امتهان هذه المهن"[3].

[1]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 11.

[2]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 17.

[3]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 11. وكنوز عربية إسلامية بزر القمر الإفريقية. ص 12.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

ثم يعود في موضع آخر ليثير هذا الأمر بغرابة، فيسرد لنا عناء البحث عن هذه الأضحية بقوله: "من العادات المؤثرة في اقتصادهم نفورهم من ممارسة مهنة الزراعة والصيد! فرغم أن الجزيرة حبلى بربيعها وأشجارها ونباتها فإنك تشقى في الحصول على كبش خلال أيام عيد الأضحى! وتساءلت: لماذا يسميها الغربيون جنة الله فوق الأرض؟"[1].

هذا من جهة. وأما من جهة أخرى فإن مما يؤكد أيضا رسوخ القيم الدينية لدى الشعب القمري تعظيمهم لشهر رمضان الكريم، وذكرى المولد النبوي الشريف، وحرصهم على حفظ القرآن الكريم.

يروي لنا الدكتور الزباخ شعائر هذه المحطات الدينية العظيمة، ومكانتها في قلوب القمريين قائلا: "يحتل الاحتفال بشهر رمضان وبالمولد النبوي مكانة كبرى في نفوس الشعب القمري، حيث يستغرق الاحتفال بالمولد النبوي في مختلف المناطق شهرا بكامله، كما تعتبر الكتاتيب القرآنية، التي تنتشر في كل الجزر القمرية، مؤسساتٍ تربويةً لحفظ القرآن الكريم ومبادئ العربية، ومصدرا مهما لانخفاض نسبة الأمية عندهم بدرجة كبيرة"[2].

وتحافظ الحضارة القمرية على الطابع الإسلامي في العمارة وفي طقوس الزواج والأزياء وكنوز التراث الإسلامي المادي والفكري بمختلف تجلياته ومظاهره. وعن هذا يحكي الدكتور الزباخ بصيغة سردية تاريخية توثيقية: "وقد خلف سلاطين جزر القمر آثارا إسلامية في مساجدهم وقصورهم وأقواس منازلهم ونقوش أبوابهم التي كتبت عليها الآية القرآنية {أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِين}[3] وزادت الآثار الإسلامية توهجا بعلومها ومخطوطاتها ومتاحفها وعاداتها في زواجهم وأعيادهم ومناسباتهم الدينية المختلفة، وأزيائهم وألبسة رجالهم ونسائهم التقليدية المحتشمة، كما نجد في صور ألبستهم العربية العمانية واليمنية، وترسخت هذه الآثار الإسلامية بوفود أسر عربية من زنجبار واليمن وحضرموت وعمان"[4].

رابعا/ القيم الاجتماعية من خلال عادة الزواج في جزر القمر

لم يفت الدكتور مصطفى الزباخ سرد أحداث متعلقة بإعادة الزواج في جزر القمر، واعتبر هذه العادات وخاصة عادة (الزواج الأكبر) من العادات التي تعيق التنمية الاجتماعية في هذا البلد، كونَها ذات تكلفة مادية عالية، ينوء بحملها الرجال، ويعجز عن تأمينها الشباب. وفي هذا الباب يسرد لنا الدكتور مصطفى الزباخ أوجه هذه العادة

[1]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 28.
[2]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 17-18.
[3]- سورة الحجر، الآية: 46.
[4]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 15- 16.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

الاجتماعية قائلا: "ومما يزيد الشعور بالأسى سلطةُ العادات المعيقة للنهوض الاجتماعي، مثل عادة الزواج الأكبر، الذي يقضي بأن يتزوج الرجل مرة أخرى بزوجة جديدة أو بامرأته القديمة، على أن يقيم احتفالات كبيرةً، ويقدم كيلو ذهب لهذه الزوجة، وهو تأكيد للقوة المادية التي تمنح صاحبها امتياز اجتماعيا، إذْ يُقَدَّم في الصفوف الأولى في الصلاة، ويستشار بمجلس الجماعة، ويصبح مثل العمدة في المجتمع المصري"[1].

ولأن هذه العادة قَضَّتْ مضجع السارد وأثارت حفيظته؛ فإنه عاد للحديث عنها ثانية في موضع آخر، فقال: "هناك عادة وتقاليد مهيمنة تستنزف اقتصاد جزر القمر، وخاصة عادة (الزواج الأكبر)، الذي يعتبر من العادات التي يلزم عبور جسرها لتحقيق الامتياز الاجتماعي، والذي يقضي بأن يتزوج الرجل مرة أخرى بامرأة جديدة أو مع زوجته القديمة، مقيماً الولائم ومقدما ما يقارب كيلوغراما من الذهب لهذه الزوجة، وهنا وجدت نفسي أقارن بين هذا الزواج الذي تُمتحن فيه القوة المادية مع القوة البدنية، وبين (الزواج الأكبر) الذي كان سائدا في مدغشقر، والذي يقضي بأن لا يستحق الرجل الزواج من امرأة إلا بعد أن يعبر في أمان نهرا مملوءً بالتماسيح"[2].

خامسا/ جزر القمر جنة الله فوق الأرض

أ- جمالية المكان: أبدى الدكتور مصطفى الزباخ إعجابه الكبير ببلاد جزر القمر سواء من حيث جمالها الطبيعي أو قيم شعبها الفضلى.

فأما هذا الجمال الطبيعي الساحر الأخّاذ فقد وثّقه الدكتور مصطفى الزباخ في حديثه عن القَمَر، هذا الكوكب المنير الذي يبدو من تلك الجزر على هيئة خاصة من الهيبة والجمال والسحر. يقول السارد: "إن القمر يشكل ظاهرة طبيعية لافتة للنظر في جزر القمر، حيث يبدو للرائي أكثر قربا ووضوحا! ويمكنني القول دون مبالغة بأنني لم أتمتع بمنظره القريب والواضح بمثل ما تمتعت به في جزر القمر، لحد لم تكن في عاصمتها إنارة سوى نور القمر المتوهج ليلا فوق جبل كرتالا"[3].

ب- جمالية قيمة الكفاف والعفاف: وأما ذلك الجمال القيمي الأمثل الذي يعكس علو القيم المثلى لدى الشعب القمري، فيصفه الدكتور مصطفى الزباخ بقوله: فيقول في الصفحة 12 "لم أرَ مجتمعا فقيرا ولا يتسول، ومحتاجا ولا يسرق، ومسكينا ولا يذل، مثل جزر القمر. ويكفي أن أقول: كل الأبواب تبقى مفتوحة وتحمل

[1]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 11-12.
[2]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 28.
[3]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 58.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

الآية الكريمة {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ}[1]. فبهذا الأمن الروحي تحيا جزر القمر غنية روحيا رغم فقرها، وقوية بإيمانها ومتماسكة بتعاونها، إنها حقا المدينة الفاضلة التي أسأل الله بقاء قيمها الأصيلة، وعبور عتبات الفقر المعيقة"[2].

سادسا/ الأدب في جزر القمر

خص الدكتور مصطفى الزباخ الإبداع الفني والأدبي والفكري في جزر القمر بجزء من اهتمامه في سرد ما رافق وجوده في هذه الجزر من وقائع وأحداث. لكن حديثه عن الأدب والفكر جاء مغلفاً برداءٍ من الألم والحزن، وذلك في معرض حديثه عن صنيع المستعمر الغربي بالثقافة القمرية عامة وبالإبداع الأدبي والفكري في هذا البلد العربي المسلم بشكل خاص.

يقول: "ولم تهتز صورة الغربي المستعمر في نفسي من لونه ولباسه فقط، بل أيضا من نهبه لآثارٍ ومخطوطاتٍ كانت تمثل ذاكرتَهم الحضاريةَ لعلماء وأدباء كبار، كالشاعر والأديب عامر أحمد قمر الدين الذي أيقظ بشعره الشعور الوطني لدى جيله، والشاعر عامر بن سالم بن بوبح مؤسس التيار الغَزَلِيّ العُذري بجزر القمر، ورائد الحركة السلفية الحبيب عمر بن سميط، الذي ترك آثارا ثقافية في العلوم الأدبية والدينية"[3].

ويؤكد الدكتور الزباخ في هذه السيرة حضورَ الشعر بقوة في الأدب القمري، ويثبت ذلك قوله: "الشعر العربي أقوى الفنون حضورا وتألقا في المجتمع القمري، وقد بدأ ظهوره بدخول المنظومات الدينية المتجلية بصفة خاصة في المولديات [...] وهكذا أسهمت هذه المحافل في تفتيق ألسنة الشعراء، فجاء شعرهم مسكونا بمناسباتهم الاجتماعية، وعامرا بأحاسيسهم الدينية"[4].

خصائص فنية في منجز مصطفى الزباخ السردي

أ– اللغة: يستعمل الدكتور مصطفى الزباخ لغة سهلة في سرد الأحداث ورواية الوقائع التي عاشها خلال مقامه بزر القمر، وكأني به يُعنى بتوسيع دائرة التلقي لتشمل القارئ العادي والقارئ الأنموذجي، وهو بذلك يستضمر رسالة إنسانيةً نبيلة غايتُهُ أن تبلغ أقصى ما يمكن من أصناف القراء والمهتمين.

[1]- سورة الحجر، الآية: 46.
[2]- كنوز عربية إسلامية بزر القمر الإفريقية. ص 13.
[3]- فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. ص 30-31.
[4]- كنوز عربية إسلامية بزر القمر الإفريقية. ص 84 – 85.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

ب– الأسلوب: اعتمد السارد الأسلوبَ المباشر، وهذا النوع من الأساليب أنسب لفن السير ككل. يقول الدكتور عبد الله إبراهيم متحدثا عن كتاب السيرة الذاتية: "إنهم يغفلون الجانب الوجداني لشخصياتهم، ويحاولون التأكيد على الجانب الاعتباري لتكوُّنهم الذاتي، متبعين الأساليب المباشرة في التعبير"[1].

وأسلوب الدكتور الزباخ في الحكي يكاد يكون تقريريا، غايته نقل المعلومات والأحداث أكثر من مغازلة الخيال والعاطفة والرمز والإيحاء والمجاز.

ت– الرؤية السردية: إن الرؤية السردية المهيمنة على منجز الدكتور الزباخ السردي هي "الرؤية مع"، ومن هذه الزاوية ألفينا السارد مساويا للشخوص في معرفة الأشياء، فلا يقدم لنا تفسيرا للأحداث قبل أن تصل الشخصية ذاتها إليه، وهنا نطالع حضور ضمير المتكلم أو المخاطَب بقوة، حيث يحصل بين السارد وشخوص حكايته تطابق تام وتوازٍ منتظم في سيرورة الأحداث والوقائع. لكن سرعان ما تحضر "الرؤية من خلف" بين الفينة والأخرى، في عدة مقاطع سردية، يهيمن فيها ضمير الغيبة وتتسع معرفة السارد لتشمل كل ما يعتمل في دواخل الشخوص. إذاً، نحن بإزاء تناوبٍ منتظم ومنسجم بين "الرؤية مع" و"الرؤية من خلف"، وهو ما منح هذه السيرة الذاتية دينامية وإثارة ودهشة جمالية خاصة.

ث– الوصف: يحضر الوصف في سرديات الدكتور الزباخ، والوصف زينة الحكي لا مراء. يقول الدكتور حميد لحمداني: "الوصف يقوم بعمل تزييني، وهو يشكّل استراحة في وسط الأحداث السردية[...] وتكون له وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي"[2]. أو بصيغة أخرى، فالوصف "لا يصلح فقط لعرض الواقع للعيان، فهو لا يصور العالم المرئي بقدر ما يعرّف بالفضاء الداخلي، ودلالته سياقية بمقدار ماهي مرجعية"[3].

وإن جنوح السارد للوصف كثير، من وصف للشخوص (وصف بوب دينار بالغول المتوحش مثلا) والأمكنة، والعادات، والقيم، والكواكب (القمر)، والليل، والطبيعة بغاباتها الكثيفة وشواطئها الممتدة.

ج– الشاهد الشعري: ومما يثير الانتباه أن الدكتور مصطفى الزباخ، الذي اعتمر جُبّة السارد هنا، لم يكن لينسى أنه شاعراً، ولذلك ما فتئ ينمّق الحكي ويؤثث السرد ببعض الأبيات الشعرية مما يناسب السياق ويلائم مقام الخطاب.

---

[1]- السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي. الدكتور عبد الله إبراهيم. المركز الثقافي العربي، بيروت. الطبعة الأولى: 1992م. ص 133.

[2]- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. د/ حميد لحمداني. المركز الثقافي العربي، بيروت. الطبعة الأولى: 1991م. ص 79.

[3]- النص الروائي: مناهج وتقنيات. بيرنار فاليط. ترجمة الدكتور رشيد بنحدو. مطبعة ساليكي إخوان. 1999م. ص 42.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

فمن ذلك قوله: "ولست مبالغا إذا قلت بأن أشعار شعراء المهجر الرومانسية عند إيليا أبي ماضي، وجبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، المتغنية براحة النفس في الطبيعة، فرارا من عاصفة القلق التي هدّت أرواحهم في مهجرهم؛ كانت خيوطاً من الأمل تدعوني للرحلة، ومن ذلك شعر جبران:

هـلِ اتَّخَـذْتَ الـغـابَ مِـثْـلـي مَـنْـزِلاً دونَ الـقُصـورْ

فَـتَـتَـبَـعْـتَ السّـواقـي وَتَسَـلَّـقْـتَ الصُّـخـور

وقول آخر:

خُـذْنِي إلى الغـابِ واتْرُكْنـي أعِشْ زَمَنـا مُسـتـمـتـعـاً بسـلامِ الـنّـفس والـبَـدَن

وقول الشاعر

عَوى الذئبُ فاسـتأنسـتُ بالذئبِ إذْ عَوى وَصَـوَّتَ إنسـانٌ فَكِـدْتُ أطيـر"[1]

وعلى نغم الشعر نغلق باب النثر، وعلى وقع موسيقى القوافي نوصد نافذة سرود الاغتراب وترانيم الشوق والحنين إلى الديار والخلان والوطن.

النتائج والتوصيات:

بعد هذه المقاربة النقدية في كتابات الدكتور مصطفى الزباخ السيرذاتية، تتحققتْ لنا النتائج الآتية:

- اتِّصال الكتابة الذاتية لدى الدكتور الزباخ بأمشاج الأجناس السردية، من حيثُ المؤثثات الفنية والعناصر الجمالية والرؤى السردية. وهذا ما منحها مكانتها الأدبية بين الأجناس الإبداعية الحكائية.
- اتِّسام الخطّ السردي "الزباخي" بالمزاوجة بين المشاهدات السِّفارية الواقعية، وبين النَّسْج الفني الحكائي، ضمانًا لحضور الجانب التشويقي لدى المتلقّي. فالدكتور الزباخ يستحضر ذائقة المتلقّي أثناء الكتابة، ويحرص على تقمّص شخصية القارئ. وهذه التقنية تمنحه مساحةً إبداعية لدفع السَّأْم الذي قد ينتاب القارئ.
- انصياع سرود الدكتور الزباخ لأغراض فكرية إصلاحية، ولقضايا قِيميّة مختلفة؛ وهذان العنصران يَهَبَان إبداعاتِه سيرورةً تربويةً، ورسائلَ إنسانيةً وقوميةً تحضُّ على المحبّة والسلام.

[1]- كنوز عربية إسلامية بجزر القمر الإفريقية.. ص 27-28. وفتوحات مغربية وعربية: ص 25 – 26.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

- الكتابة الإبداعية والفنية، وبخاصة السرد السيرذاتي، ترياقٌ فعّال لعلاج آثار الوحشة والاغتراب، وإكسيرٌ لدفع الملل وطرد اليأس الذي ينتاب المهاجر الذي رمت به الأقدار بعيدًا عن ريح الوطن وثراه الطّاهر... فبالإبداع تستكين الروح وتخمد جمرة الشّوق المتّقدة في الأعماق. وهذه هي الوصفة التي دأبَ على تناوُلِها الأديب المغربي الدكتور مصطفى الزباخ وهو يكابد الاغتراب في دولة جزر القمر.
- راهنتْ هذه الدراسةُ، في بدايتها، على السعي إلى بحث سؤال الجدوى والرهانات القيميّة والفنية في سرديات هذا الكاتب المبدع؛ ونزعم- بعد هذه الجولة النقدية- أنها قرّبت القارئ من جدواها، ووضعت يَدَهُ على أسرارها القيمية والفنية. وبذلك تكون المخرَجات على قدْر المدْخَلات، والنتائجُ بإزاءِ الفرضيات؛ فاعتدلت الموازين دون تفريط ولا إفراط.

ولكل ما سبق؛ فإنني أوصي، في نهاية الدراسة، بانفتاح التلقّي النقدي على منجز الدكتور مصطفى الزباخ الإبداعي؛ فقد تمكن هذا الرجل من صناعة جنسٍ حكائي ماتع وشائق على أراضي جزر القمر، تلك الجزر التي ترفُلُ جمالاً في خلجان المحيط الهندي، وتُجاهِدُ لإقامة أسس دولة إسلامية عربية أنْهكتْها تهديداتُ أيادي أعداء الاستقرار والأمن والسلام.

الخاتمة :

لقد استطاع الدكتور مصطفى الزباخ من تحويل مشاهداته اليومية، وما رافقها من أحداث في دولة جزر القمر النائمة في أحضان المحيط الهندي، إلى سرودٍ ماتعة وحَكايَا مُؤنسة، متوكِّئًا على الخصوصيات الفنية التي تؤطّر الفنون السردية، من زمان ومكان وشخوصٍ وأحداثٍ يغذّيها الحوارُ أحيانًا، والسّرد الواصفُ أحيانًا أُخَر.

والذي يُنعمُ النّظر في كتابات الدكتور مصطفى الزباخ السردية سيجد أنها تقف في المنتصف بين الكتابة الرّحْلية أو السِّفارية، وبين الإبداع السردي الذي تقوم عليه الفنون القصصية والروائية. وذلك من حيث هيمنة الواقعية على الأحداث في تناميها الدرامي، وفي شخوصها، وفي زمانها ومكانها، وهو ما يجعلنا أمام السرد الواقعي أو الحكاية الواقعية؛ ولكن الدكتور الزباخ يُلبِسُها الرداء السردي القصصي الماتع، من حيث اعتمادُ بُنى الحكي التي تؤطِّرها الرؤية السردية، وديناميةِ الصراع، واللغة الواصفة، والخطاب القيمي المتجدد.

وبذلك تنتقل كتابات الدكتور مصطفى الزباخ من مجرد مشاهدات عاشها وشارك فيها أحيانًا، إلى سرودٍ ذاتية جماليةٍ، لا تقلّ قيمةً عن مختلف الفنون السردية الماتعة الأخرى، التي يزدان بها الأدب وتغتني منها أجناسُه.

Journal of Translation & Multilingualism
مجلة الترجمة وتعدد اللغات
ISSN: p-3006-1709 – e-3006-1717
Vol. 03, Issue: 01. January – June 2025 Published on: 26-05-2025

المراجع:

1. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي. الدكتور حميد لحمداني. المركز الثقافي العربي، بيروت. الطبعة الأولى: 1991م.
2. السردية العربية: بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي. الدكتور عبد الله إبراهيم. المركز الثقافي العربي، بيروت. الطبعة الأولى: 1992م.
3. الاغتراب في الشعر العربي الحديث. الدكتور إبراهيم السولامي. منشورات زاوية. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. طبعة 2008م.
4. فتوحات مغربية وعربية بجزر القمر الإفريقية. تأليف الدكتور مصطفى الزباخ. مطبعة: Copy Laila – 2023.
5. الفن والأدب: بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية. الدكتور ميشيل عاصي. منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. الطبعة الثانية: 1970م.
6. قراءات في الأدب المغربي الحديث. الدكتور عبد العزيز جاسوس. منشورات زاوية. الرباط. الطبعة الأولى: 2006م.
7. الكتابة السردية في الأدب المغربي الحديث "التكوين والرؤية". أحمد المديني. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. الطبعة الأولى: 2000م
8. كنوز عربية وإسلامية بجزر القمر الإفريقية "إنجازات وشهادات". تأليف الدكتور مصطفى الزباخ. مطبعة: Copy Laila– 2023 .
9. النص الروائي: مناهج وتقنيات. بيرنار ڤاليط. ترجمة الدكتور رشيد بنحدو. مطبعة ساليكي إخوان. 1999م.